مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 28، جانفي 2021، ص - ص: 687 – 696
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

الإعلام الفائق بين خيبة الواقع ورهان الأخلاق من منظور الفلسفة الاجتماعية لبودريار

Hyper modernity between reality and ethics from the scope of sociological philosophy of Baudrillard

نبيل سعو *
مركز بحث اللغات والثقافة الأمازيغية
بجاية
nabileprof@gmail.com

عقوني أسيا
جامعة محمد لمين دباغين
سطيف 2
assia.agouni@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/02/09 **تاريخ القبول: 2020/10/28**

الملخص:
اتسعت حدود الواقع في القرن 20 م أين أصبح لا يخضع لحدود المرئي فقط بل تجاوزه إلى العالم الافتراضي الذي طبعه الإعلام والتكنولوجيا المعاصرة من خلال تطورها المذهل الذي قلصالزمن وقزم المكان،مما جعل الفرد المعاصر مكبلا ضمن نمط حياتي جديد تتحكم فيه وسائل جديدة، وهذا ما خلق له قضايا وإشكاليات راهنة تستوجب عليه إيجاد سُبل للتأقلم مع المُعطيات التي اختزلت العالم في الفضاء الافتراضي. كما برزت تساؤلات حول الخطاب الأخلاقي الذي أصبح مجرد قضية ميثاق واتفاقيات،لا أخلاق واقعية نابعة من أعماق الإنسانية. وإذا كان هذا هو واقع الأخلاق حسب " جان بودريار" في عصر ما بعد الحداثة،فهل يعني ذلك أنه أصبح قدرا للإنسانية المعاصرة أم هناك إمكانية لتحقيق الصحوة ،وتهدف هذه الدراسة لإظهار تأثيرات الإعلام والتكنولوجيا المعاصرة على واقع الإنسان المعاصر وأخلاقه ، ومن ثمة البحث عن مخرج أخلاقي للأزمة الراهنة.
الكلمات المفتاحية: الإعلام؛ العالم الافتراضي؛ التكنولوجيا المُعاصرة؛ الخطاب الأخلاقي؛ ما بعد الحداثة، الإنسانية المعاصرة.

Abstract:

The extent of reality has expanded significantly since the 20th century .it is no longer bound by the limits of the visual but it goes even beyond to the virtual world, which is created by modern media and contemporary technology that witnessed a significant development, reducing time and space. Thus, as time goes by, the modern individual finds himself constrained in a new way of life controlled by new means. This shall create recent problems and problematic necessitating ways to adapt with the data at hand, in which the world is reduced in the virtual space. In this circumstance we find also questions proposed around ethical discourse, which has become a mere charter and agreements and not real ethics sourced from the depth of humanity. If this is the reality of ethics according to Jean baudrillard in the age of post modernism, then is this situation the fate of this era or is there a possibility for awakening. This study aims at showing the effect of modern media and technology on the modern man as well as his ethics. It aims to find a solution to the ethical crisis of the current era.
Key words: Media; the virtual world; contemporary technology; ethical discourse; post-modern; humanity modernism.

* المؤلف المرسل.

مقدّمة:

لقد فتح الإعلام الفائق المجال لاتساع حدود الواقع، حيث أصبح يتخطى حدود الافتراض التكنولوجي المعاصر، بفضل تغييره لمفهومي الزمان والمكان ففي الفترة المعاصرة أو ما يُعرف بما بعد الحداثة اليوم لم تُعد تعترف لا بغد أفضل، ولا بعقل منتصر، فقد أصبحت تترجم التحولات العصرية، وترجعها لعامل الحاجة واللذة ، أين أصبح الفرد المُعاصر مهتما بالنرجسية وهجران الحقل الاجتماعي نحو طموح أفضل يُحقق له حلمه المُنتظر، الذي أصبح يطارده باستمرار، وهذا من دون شك ما وجده وأتاحه له مجال الغواية، والاهتمام المبالغ بالموضة، وكذا الإعلام الفائق المعاصر المحفوف بكل أنواع الإغراءات، وهو ما جعل الفرد المعاصر أو الإنسان الفائق مكبلا ضمن نمط ودائرة حياة جديدة تتحكم فيها وسائل جديدة بدورها، وهذا ما يخلق له قضايا وإشكاليات راهنة تستوجب عليه إيجاد سُبل للتأقلم مع هذه المُعطيات، التي اختزل فيها العالم في فضاء افتراضي رمزي ، بحيث تحول العالم إلى نسخة عن المجرد، والحقيقة باتت مجرد تأويلات فردا نية يطغي عليها الجانب الإمتاعي، أين يبرز اختفاء الإنسان، وتفسح المجالات لإغراءاته، وتسلل عبر الكبت الغريزي، وهكذا يتجلى تدريجيا اختفاء، وانمحاء كل ما هو إنساني عن العالم المعاصر، ليغزو العالم الرمزي كل أبعاد الوجود، وهكذا تنسلخ الحياة عن بعدها الحيوي، مادام كل شيء بات يستقي وجوده من عالم الشاشة؛ فحتى الأخلاق المعاصرة لم تعد تهتم بالحقيقة، بل بات غرضها يتوقف في حدود كسب الفضاء العمومي، بالمعلومات المسوقة من طرف الإعلام المُعاصر الذي فرض منطقه على الواقع، واختزله في بعده الرمزي، أين أصبح خطاب الأخلاق فيه مجرد قضية ميثاق، واتفاقيات، لا أخلاق واقعية نابعة من أعماق الإنسانية.

وبناءا على ما تقدم فتساؤل الدراسة كتالي:

إذا كان هذا هو واقع الأخلاق حسب "جان بودريار" في عصر ما بعد الحداثة فهل هناك إمكانية لتحقيق إعلام أخلاقي لمعالجة الأزمات الراهنة؟

من هنا فإن أهمية هذا الموضوع تتبدى من كونه يهدف لوضع الإعلام والفضائيات الإعلامية المعاصرة على محك النقد الأخلاقي، إضافة لتسليط الضوء على الأزمات الأخلاقية التي مست مختلف المجالات بما في ذلك المجال الإعلامي. كما أن أهميته تظهر أيضا من خلال تبيان توسع مساحة الافتراضي على حساب الواقعي في الفترة المعاصرة، ومدى تزييف الأحداث الواقعية، مما ولد فراغا أخلاقيا رهيبا.

أما عن أهداف هذه الدراسة فتكمن في إبراز انعكاس التغييرات القيمية المعاصرة على مبادئ، وأهداف الإنسان الفائق، الذي أصبحت تسيره المتعة والغريزة. وكذا في البحث عن إمكانية لانفراج أخلاقي في ظل طغيان التكنولوجيا المعاصرة، وفي ظل فقدان الإنسان المعاصر للسيطرة على واقعه. إضافة للبحث عن سبل لاسترجاع إنسانية الإنسان المهدورة.

وبناءا على ما سبق فقد قسمنا هذه الدراسة إلى أربع عناصر، أما العنصر الأول فبعنوان: الإعلام والعنف الرمزي، وفيه عالجنا انعكاسات الإعلام المعاصر على الفرد، وسلوكياته، وتوجهاته، وكذا انعكاساته على المجتمع ككل، والثاني بعنوان: الإعلام والاقتصاد التقني الجديد، وفيه عالجنا طغيان الرمزية على الواقع بسبب الإعلام المعاصر، وخلقه لقيم جديدة أصبحت تتحكم وتوجه الإنسان، والثالث بعنوان: الإعلام والبؤس الأخلاقي، وفيه عالجنا انفصال الإعلام عن الأخلاق، وضمور الطابع الأخلاقي اليوم، مما جعل من أزمة الإنسان المعاصر أزمة أخلاقية بامتياز، أما الرابع فبعنوان: الفلسفة الاجتماعية والانفراج الأخلاقي للإعلام المعاصر، وفيه وضحنا كيف يراهن جان بودريار وبعض معاصريه على الأخلاق كمخرج ناجع

للأزمات التي يتخبط فيها الإنسان المعاصر، والتي كان الإعلام المنفصل عن الأخلاق سببا فيها، مما جعل من إعادة الربط بينهما حلا وضرورة حسب بودريار لتجاوز الخيبات المترتبة عن هذا الفصل.

أما بخصوص الدراسات السابقة فنجد بعض الأبحاث حول فكر جان بودريار ومنها نذكر:

كتاب ل " كريس هوروكس وزوران جيفتك " بعنوان: **"أقدم لك جان بودريار"**، وقد ترجمه إلى العربية " حمدي الجابري" ، وصدر عن دار النشر: المجلس الأعلى للثقافة سنة 2005م، وفيه حاول الباحث القبض على هوية جان بودريار التي رأى بأنه من الصعب تحديدها، لأن فكره متشعب، حيث نجده تارة كفيلسوف، وتارة أخرى كعالم اجتماع، كما حاول الإحاطة بقاموسه المفاهيمي .

كما نجد أيضا كتاب: سوزان عبد الله إدريس: **"لا أخلاقية العنف عند جان بودريار: عنف التكنولوجيا، عنف الإعلام، الواقع الافتراضي"**، وقد صدر عن دار منشورات الاختلاف سنة 2018م، ولقد خصصت الباحثة هذه الدراسة لمعالجة مفهوم مركزي في فلسفة جان بودريار وهو " العنف " وصلته بالإعلام خصوصا في عصر الحداثة الفائقة، وانعكاساته على جميع جوانب المجتمع، وتغييبه للمعايير والضوابط الأخلاقية، مما يجعل من المطلب الأخلاقي أمرا ضروريا لتجاوز نكسات وخيبات الإنسان المعاصر.

مفاهيم الدراسة:

إن رغبتنا في التعرف على انعكاسات الإعلام المعاصر على واقع الإنسان المعاصر، والأزمات الأخلاقية التي خلفها دفعتنا لاختيار البحث في إمكانية الاعتماد على الرهان الأخلاقي حسب بودريار لتجاوز خيبات ونكسات الإعلام الفائق.

1- الإعلام والعنف الرمزي: يذهب " ميشال فوكو" (Michel Foucault) (1929- 1984) إلى أن الإنسان لم يتمكن من تجاوز السلطة الحيوية إلا مع حلول الإمكانيات التقنية والسياسية، والتي لم تكن مهمتها تنظيم الحياة فقط، بل المساهمة في صناعة الكائن الحي، والاهتمام بكل ما هو شاذ. ولهذا يعرف التصنع بأنه فيروسات لا يمكن مُراقبتها، فهي فيروسات هدامة ومُخربة عالميا، وأنه امتداد هائل ورهيب للسلطة الحيوية، فرغم كونها ذرية إلا أنها تتجاوز كل سيادة إنسانية[1]. وهذا ما نجده أيضا عند "ماك لوهان"[*] (Mac luhan) (1911- 1980) الذي يرى أن أجهزة الميديا المعاصرة بأشكالها المختلفة خاضعة لأشكال متعددة من الرقابة، وبهذا فيمكن حدوث ثورة في مجتمعاتنا المعاصرة عن طريق استراتجيات التخطيط السياسي المُوجه نحو تحقيق أهداف تسلطية[2].

وما يؤكد صدق تنبؤ كل من" فوكو"، و"ماك لوهان" واقعنا الحالي الحافل بالأمثلة على غرار الإشاعة التي أطلقتها مصادر الإعلام، ومفادها أن "أمريكا" خاضت حرب الخليج كبديل عن حرب عالمية ثالثة لم تقع، فهذه "الحرب المُعلنة" حرب عسكرية حقيقية، بل إعلام يهدف لتضليل الحرب أو هو تضليل للحرب، حيث مارس به الأمريكيون حربا شرسة على الرأي العالمي عبر وسائل الرقابة والإعلام، وخاصة قناة: "س إن إن"(CNN) التي تتحول في حد ذاتها إلى حدث، حيث انفصلت عن سرد أحداث الواقع كما هي، وانصرفت للتقوقع داخل عالمها الخاص، لتصبح بذلك قناة إعلامية بلا أخلاقيات، وبلا مصداقية، وذلك من أجل تغطية عجزها عن الإجابة على جميع الأسئلة التي تُوجه لها، وذلك ما حتم عليها تحويل جراحها، وصراعاتها، وتناقضاتها، وفسادها إلى فرجة تقدمها في شكل مشحون بالوهم [3]. ومن بين الآليات التي تساعدها على فعل ذلك حسن تركيبها بين المتناقضات؛ فالصورة في الإعلان المعاصر تتفنن في إنتاج الموت عندما تحاول أن تحفظ الحياة و"تخلدها"، وحينما تأمل في جعل الغياب حضورا فإنها تغدو شهادة على حقيقة غياب الحضور، لهذا فالتصوير في معناه الحقيقي هو ضرب من التحنيط، فهو استلاب وتحويل الشيء إلى

صورته، والأصل إلى نسخته، والوجود إلى مظهره، والواقع إلى تمثيله[4]، فكل شيء أصبح على صعيد الصورة متغيرا، ففي كل مكان هناك استبدال لمكان الواقع ومكانته بواقع جديد مصطنع برمته انطلاقا من عناصر ترميزية[5].

إضافة لذلك فالقيمة كذلك أصبحت تتبادل علاقاتها بالعدم في الإعلام المعاصر، وما عدمية القيمة في الأصل إلا مصيرنا الذي تتأتى منه النتائج الأكثر سعادة، والأكثر بؤسا معا، وهنا يبرز لنا فهم آخر للقيمة ذو علاقة بتحديد مصير الوجود الإنساني، حيث من وراء تبادل القيمة مع الوجود، هنالك دائما تبادل للعدم الذي يقوم في المقام المقابل غير المرئي، ويأخذ أشكالا مختلفة: كالموت، والوهم، والغياب، والسلب، والشر. وعلى هذا فهم"فريدريك نيتشه" (F .Nietzche) (1844 – 1900) إستراتيجية موت الإله تماما كما حاول الله استرداد الدين من الإنسان عبر التضحية بابنه، ليخلق بذلك إمكانية لتداول الدين إلى ما لانهاية.

إن مكر الإله يشبه إلى حد بعيد مكر الرأسمالي، فمن ناحية يغرق العالم في دين مُتنام على الدوام، ومن ناحية أخرى يسعى لاسترداد دينه من الآخر، وذلك يلغي إمكانية سداد الدين، واستبداله بشيء آخر. فالسريان اللامُتناهي للإفتراضي يجعل من المستحيل استبدال الواقعي بشيء آخر مهما كان نوعه[6]، لذالك يبدو لنا أن تأويل الإعلان، والموضة، والعلاقات البشرية العامة يتم بنوع من الاستفتاء الدائم، والذي يطلب من المستهلكين أن يؤيدوا في كل لحظة رموزا معينة من القيم، ويكون ذلك ضمنيا[7]فإذا ما أخذنا معلومة المذيعة في عصرنا الحالي، وقمنا بتحليلها سنكتشف أن بإمكانها عبر قدرتها الفائقة اختراق مواضيعها المُذاعة في الأوساط الاجتماعية.

كما أنه غالبا ما تتوصل لتحقيق وظيفتها بطريقتين: الأولى: تتمثل في دور وسائل الإعلام المختلفة الذي يتوقف في المستوى الإخباري، حيث تكتفي فيه بالمساهمة في صنع المشهد الإخباري الذي توصله للرأي العام، أما الدور الثاني المُحتمل: فيحدث عندما تحول وسائل الإعلام ذاتها إلى وسائل متحكمة في المعنى، وتصطنعه من خلال الرموز والعلامات[8].

أما العلامة فهي صناعة التأمل المحض للعالم الافتراضي، أين أصبح عالم الشاشة يهيمن فيه كليا اللايقين على الواقع ذاته، ونتيجة انفصالهما كف العالم الواقعي عن استمداد قوته من العلامة، كما كفت العلامة هي الأخرى عن أخذ قوتها من معناها الخارجي، ولكن بالمقابل يستطيع أي نظام أن يخترع لنفسه مبدأه التوازني، والتبادلي، والقيمي، والسببي، والغائي؛ بحيث يدور كل نسق في فلك تناقضات منتظمة في شكل ثنائية: الصحيح والخطأ، الخير والشر... فالكل يتحرك في حركة جدلية تُحيل في الأخير إلى الرمز[9].
كما أن الرمزية تكشف عبر بنيتها الثنائية عن المعنى، ويكمن سحرها وأهميتها معاصرا في تمجيدها لغموض فكرة الكينونة، وفي إعطائها إمكانيات متعددة للذات للتعبير عن نفسها، وذلك هو السبيل الأنجع لفهم الوجود والعالم[10]. ومن إشكاليات مواضيعنا في العالم المعاصر أنها لم تعد تقتصر على التجاوب معنا فحسب، بل أصبحت بدورها تتخاطب فيما بينها، لذلك يرى "بودريار" (J .Baudrillard) (1929 – 2007) أنه من الأصح أن نقول بأنه ليس هناك وجود لمواضيع بصيغة مفردة، بل تأخذ المواضيع دائما في بنيتها شكلا متناسقا شاملا، ولهذا نراها تمتد أيضا نحو البنيات الاجتماعية للمجتمعات، والتي أصبحت تتساءل عن كيفية التأقلم مع الماديات المنتشرة في واقعنا المعيش[11].

إضافة لذلك فالعمل أيضا لم يسلم من هذا الزحف، بل أصبح على حد تأويل "بودريار" هو الآخر ليس سوى مجرد رمز يُنْتَج ويُسْتَهلَك كباقي المنتوجات الأخرى. فالعمل اليوم بات يتصالح مع اللاعمل، وعَامِل اليوم أصبح يشعر بالراحة عندما يستغل أوقات فراغه خارج العمل، أي في اللهو، والترويح عن النفس. فالعمل اكتفى بأن يكون نمط إنتاج، وأصبح أيضا يخضع للإستنساخ، والتفريغ الدلالي لمختلف الشهوات

واللذات[12]، ومن هنا يرى جانفرانسوا دورتيي (Jean François Dortier)"[*] (1956 -) "أن "جان بودريار" قد سلك سبيلا جديدا خالف فيه سلفه، إذ لم يعتبر المادية أساسا مسيطرا على العلاقات المباشرة بين البشر، بل اختزل الصراع حاليا في سوق الإشارات غير المتكافئة، والمتبادلة بين الأفراد، حيث أنها احتلت المركز، وذاب فيها كل مكان يُعتقد به أنه ثابت[13]؛ ولقد عمل بودريار في فلسفته جاهدا ليوضح كيف صرنا نأخذ بالصورة الزائفة للحقيقة على أنها الحقيقة نفسها، كما حصل عندما أبدى الناس حزنا حقيقيا لموت الأميرة" ديانا"، رغم أن الناس لا يعرفونها إلا من خلال صورتها الإعلامية المشكلة بدقة، وأدهى ما في الأمر أن ذلك استمر حتى أخذت الصورة المُزيفة مكان الصورة الأصلية، وحل الوهم مكان الحقيقة [14].
ولقد حصل هذا التحول حسبه عندما ألغيت ثنائيات الوجود، وكفى الوجود عن التعبير بالند في الحياة، ليعطي بذلك الفرصة للمبدأ الواحد المتمثل في تكنولوجيا الشاشة لسيادة مجتمعنا حاليا، وتهميش الواقع، وهذا ما ينبئ بقرب وقوع الجريمة الكبرى[15]ونتيجة لتدرج عصر الاصطناع بخطوات ثابتة نحو تجسيد حلمه المتمثل في الخروج عن منطق التحديد، وتكريس عامل الضرورة والصدفة، فإنه تنكشف نيته الإجرامية حيث أنه يهدف إلى سلك سبيل القتل، واختفائه وراء قواه الخلاقة[16].

2- الإعلام والاقتصاد التقني الجديد: يرى "جان بودريار" في الفترة المعاصرة أن العقد الاجتماعي بين الأشياء قد انقطع كانقطاع العقد السياسي، وهو ما ولد صعوبة أكثر في تمثُّلنا للعالم، وفي فك شفراته، مما جعل فك رموز الأشياء مستعصيا، وربما يرجع ذلك لفقدان الرغبة في فكها، أو لأن كل شيء أصبح يسري بشكل سريع لدرجة أنه لا وقت لنا لمبادلته بقيمة ما، فقد اختفى الواقع، وأصبحنا نعيش اليوم في عالم ليس بعالمنا ، فواقعنا الحالي تحول لمجرد وهم [17]؛ وخير دليل على ذلك الاقتصاد السياسي المعاصر، ونظرياته التي لم تكتف فقط بوضع الفرد في مقابل عمله، أي في شكل المقايضة المعتادة منذ القديم، بل أصبح هذا النظام يعمل على استنزاف قوى العامل، لدرجة أن قيمة العمل التبادلية أصبحت تُباع وتُشترى في الأسواق التجارية، والأدهى من ذلك أنه لم يتوقف عند هذا الحد، بل امتد ليدمج الفرد المعاصر في النسق الذي ينسجه حتى استحال عليه الآن الخروج منه [18].

ولقد عمل من قبل الفيلسوف الألماني "كارل ماركس" (Marx) (1818 - 1883) في كتابه "رأس مال" (le Capital) على تحليل أبعاد النظام الرأسمالي حيث يرى بأنه تتم فيه ترقية الإنتاج الاجتماعي للعمل على حساب العامِل الفرد، كما تتحول فيه أيضا وسائل تطوير الإنتاج بذاتها إلى وسائل للهيمنة على المُنتِجين، ولاستغلالهم. كما أنها تشوه العامل بتحويله إلى جزء من الإنسان، وتخفِّضه إلى مستوى ملحق بالآلة[19].
وبسبب هذه "التبعية" فقد ربط ماركس بين حال العامل وزيادة الرأسمال، إذ يرى بأن العامل لا يعيش إلا لأجل زيادة رأس المال، كما أنه لا يعيش إلا في حدود ما تتطلبه مصلحة الطبقة المُهيمنة. علما أن الصناعة الحديثة قد حولت المشغل الصغير للحرفي الأبوي إلى مصنع كبير للرأسمالي الصناعي[20]، كما تنبأ فيه أيضا بوصول اغتراب العامل لذروته في المجتمع الرأسمالي الحالي، وبأن حال الطبقة العاملة سيصبح أكثر اغترابا، نظرا لكونها لا تُشارك في إدارة العمل، فيجد الإنسان نفسه في المقابل في ظل هذا النظام قد تحول إلى مجرد شيء نتيجة تتبعه المُبالغ لرأس المال[21]، كما أنه يحول العلاقات الإنتاجية داخل النظام الرأسمالي إلى أشياء وسلع، وهذا بالطبع ما ساهم في جعل المجتمعات المعاصرة لا تمتلك القدرة الكافية على سداد حاجات المُنتجين، نتيجة تتطور الرأسمال المشروط بالقوانين الغريبة عن الإنسان، والتي يتم التسلط فيها على قوى العمال الإنسانية، والتي تُشترى من طرف مالكي وسائل الإنتاج[22]. ومن بعد ذالك ستتكفل علاقات الإنتاج الاجتماعية على حد قول "ماركس" بتغير وتحويل وسائل الإنتاج المادية وتطويرها، من أجل تطوير العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية [23]، وفي هذه الأثناء كما يرى "جان بودريار" يتحول الرأسمال من خدمة

الاقتصاد السياسي إلى الاصطناع، ويسيطر على كل المجالات[24]. وهو ما سيؤدي لتوغل اللايقين من دون شك فيها، نتيجة لتنافر المعطيات الحاضرة، إذ لم يُعد الآن بإمكاننا الإمساك بنشأة الحدث وفرادته في نفس الوقت، بل سنجد أنفسنا نطفو على ظاهر الأشياء، بينما يختفي لنا معناها، فإما أن نمسك بالمعنى وينفلت منا الظاهر، أو نمسك بالظاهر ويفلت منا الباطن، وهنا تظهر لنا مأساة التطور الإنساني التي نعيشها اليوم، والتي تبدو أنها مأساة مرض، وحب انتقام من الذات التي أصبحت مجرد "مُنادات وإلكترونات" حُرة تشتغل حول ذاتها، وتبحث عن الآخر بدون جدوى، لينتهي بها الأمر في الوقوع في فخ العبودية[25].

ولعل هذا ما تلخصه لنا رؤية "ثورستين باند فيلبن"[*] (Torstein Veblen) (1857- 1929) للمرأة وظروفها في ظل المجتمع الأبوي، والذي يكون فيه الاهتمام بالمرأة من خلال إطعامها، وتزويدها باللباس ما هو إلا تعبير عن الرغبة في امتلاكها من طرف سيدها، فتصبح بذلك عبارة عن ملك، وهذا لا يختلف عن ملكية المواضيع التي نتبادل معها، والتي تفرض حضورها بيننا. ومن هنا نخلص لنتيجة أخرى مفادها أن المواضيع تختلف، وتتعدد ليس في علاقتها فقط لتحقق رغباتنا المختلفة، وقدراتنا الإستعمالية، بل تختلف أيضا في قيمتها الرمزية التي أبدع السوق الاستهلاكي المعاصر في إظهارها لنا[26].

إن انسحاب الإله كسيد لأسباب، قد فتح مجال اللامبالاة، والصدفة المحضة واللاتحدُد، وربما الإغراء الخالص، فلم يعد مصير الإنسان يحدد مُسبقا، فقد تركه في حيرة للأبد، وترك العالم لمآله الخفي، ولهذا فالعالم اليوم قد تحول للاعب، واللاعب إلى عالم، فلم نعد نحن من يختار اليوم، بقدر ما أصبحنا مُختارين. كما أن سعادتنا تبلغ ذرتها اليوم عندما نُحس بأننا مُنتخبين في حياتنا اليومية، وتزداد مُتعنا حينما نحلم برؤية الأشياء تنتظم وحدها وفق منطقها الخفي المستقل تماما عن إرادتنا [27]، والخاضع لمنطق العبث المرتبط بالسعادة الذي يتم فيها تحويل التجربة إلى نقيضها، وهذا التحول هو من يبعث فينا النشوة، والغبطة التي تجعلنا نُحس بحالة الفرح وتخلصنا ولو مؤقتا من فعل الإكراه واللزوم[28]، وللخروج من مأزق الذات أصبحنا مضطرين لمُمارسة نوع من اللعب مع حاجياتنا، حيث نقوم دائما باستبدال إحداها بالأخرى، ولكن للأسف الشديد ما أن نتمعن حتى نصطدم بحقيقة مفادها أن اختيارنا الشخصي لم يكن خيارنا، بل افرزه النظام الاقتصادي فنصاب باليأس لفقدان الأمل في التحرر، لأن كل شيء أصبح يسبح في نمط الاستهلاك [29]. وهكذا سيحل اللامتوقع في كل المجلات نتيجة التقدم التكنولوجي[30] الذي أوقع الصناعة الحديثة في مأزق نتيجة تركه الموضوع أمام خيار الحياة أو الموت، من أجل عمله البائس المتمثل عموما في الاستثمار في رأس المال، باستغلال قوى الفرد الجزئية حيث لا يكون سوى حامل لوظيفة اجتماعية فردية[31]. وقد شخص الناقد الأمريكي "فريدريتش جيمسن" (Fredric Jameson) [*] (1934) هذا الوضع أيضا على أنه ضرب من اكتمال هيمنة الثقافة، أو غلبة الطبيعة الثانية على الطبيعة الأولى، ويحدث هذا حسبه عند اجتماع أمرين متناقضين، الأول: عندما يتراكم المنتوج الثقافي لدرجة يصبح فيها مكتفيا بنفسه دون حاجة إلى الواقع الذي يفترض أن يعبر عنه. والثاني: يحدث عندما تنضوي الثقافة بشكل شبه تام، وتقع في فخ الاقتصاد الاستهلاكي الذي أصبح يضفي مساحة جمالية على واقعه[32].

وختاما ننتهي إلى أن أسباب بوادر هذه الأزمة تتلخص حسب " بودريار" في العُصاب المرضي الذي سببه لنا إنتاج، وإعادة إنتاج الواقع، لدرجة أن صارت المجتمعات حاليا تتنافس دون قطيعة على خلق الإنتاج، والاستمرار في كسب الثروات بهدف ضخ الحياة في الواقع الذي يفلت منها، وهكذا مات الواقع، ولم يعد له أي معنى، وأية فعالية، وتم تعويضه بواقع فائق يشير له بالرمز والإشارة[33]. حيث تُنتقى الدلالات بشكل رمزي تعسفي يحدده النظام الرمزي، والذي يدين في وجوده للشروط الاجتماعية، ولتناسق وظائف البنية مع

مقابلاتها الدلالية[34]، ومن يحدث ذلك بالتواطؤ مع مجال الإعلام لإعماء، وتحريف، وإذابة الواقع وتحويله بعد ذلك لنسخة مشابهة له أي مصطنعة (simulacre) [35].

3- الإعلام والبؤس الأخلاقي: تزامن ظهور الآلات الصناعية عند "بودريار" مع عصر هيمنة آلات الوعي العقلاني والمرجعية التاريخية، والآن يتزامن ظهور الآلات الصدفوية مع لنظام الذي يعتمد أساسا على اللامرجعية، واللاوعي، بل حتى اللاوعي ذاته أصبح خاضعا للتحول، وفقد مرجعياته، وثوابته ليصبح تظليلا استراتيجيا[36]. كما أن العلم مؤخرا بدأ يتحول أكثر فأكثر نحو اللايقين، والفوضى، والارتياب. إضافة للاقتصاد، والذي بدأ يخضع أكثر فأكثر لبنية اللاتوقع الشامل. كما أن انفجار تقنيات الاتصال بدأ يفسر مزيدا من الإبهام[37] في عالم السلعة التي تُثير دائما في حركتها حالة من التباعد والتفرقة بين البشر[38]، ويبرر "بودريار" ذلك بالقول بأنه يملك انطباعا باطنيا بعودة شعلة المواضيع التقنية، وبوتيرة متصاعدة، نظرا لوجود لعبة متبادلة بيننا وبين التقنية، وربما أيضا ليس من الخطأ أن نفكر بأنه حان الوقت الآن لإدراك انتقام المواضيع والأشياء منا، وكل هذا ينبأ بأن الغرب اليوم يعيش حياة يسودها الملل واليأس[39]، فالتقنية والأشياء اليوم تعمل على خلق حاجات زائفة عند الأفراد والمجتمعات المعاصرة، وهو ما يؤدي لإفراغ حياتنا من هدفها المنشود، ويتم تحويل اهتمامنا نحو المادة والأشياء الأكثر زيفا كالاهتمام بالأزياء، والموضة...وغيرها. ومما لا ريب فيه أن هذا التحول لم يكن عفويا بل كان مخططا له من طرف النظام الليبرالي الذي أراد تجهيل الناس، وتحويلهم لمجرد فضوليين وغرباء تتمثل وظيفتهم الجديدة في المشاهدة فقط، لا في المشاركة[40]؛ وذلك خدمة لسياسة ترويج السلعة، والتي باتت في وقتنا هذا جوهر السوق والمحور الذي يدور حوله الفرد والمجتمع. ولقد أظهر الأفراد قوة ارتباطهم بالسوق الذي يلبي حاجاتهم، ومتطلباتهم اليومية، وبعبارة أخرى تحولت السيادة في يومنا تجاه الأشياء، واتجهت الأعين صوب منطق البيع والشراء، ومن هنا انحرف السوق نحو التشيؤ والتو ثن[41]. وهذا يدل أن مُجتمعاتنا اليوم أصبحت خاضعة في بنيتها لما يُسمى بالتطور التقني الذي حتم علينا ضرورة الاستجابة، والخضوع لمنطق الأشياء[42]، أي أنها بتعبير "ماركيوز" (Marcuse) (1889 -1979)اختزلت الطابع الاستهلاكي في مختلف المجالات الصناعية والثقافية، والذي يخلق فينا رغبات تقتضي المداومة على إشباعها[43]، فالتقنية المعاصرة، وعصر الاصطناع المعاصر قد تمكنا من وضع الفرد في مأزق الخلق اللامتناهي الرغبات التي يصطنعها في كل مرة حتى يوقعه في فخ الاستهلاك[44]، وأما "بودريار" فيرى أن حياة الإنسان المعاصر تبدو ثمينة ليس لكونها ذات قيمة، بل عندما تتخذ شكلا مفرطا، وغير أخلاقي، ومن هذا المنطلق فهي غير قابلة للمُبادلة بأية حياة أخرى أو قيمة أخرى أيا كان نوعها [45].

4- الفلسفة الاجتماعية والانفراج الأخلاقي للإعلام المعاصر: لقد بحث أعلام الفلسفة الاجتماعية عن إمكانية الانفراج الأخلاقي للإعلام المعاصر كما ذهب لذلك جيل ليبوفيتسكي (Gilles Lipovetsky) (1944) من خلال حديثه عن مفهوم عودة الأخلاق التي لم تعد تعني إحياء الواجب الأخلاقي المطلق، بل تفتح المجال لموجة الأخلاق عبر الإعلام " بحيث تتشكل الأخلاق من جديد في العروض واتصالات الشركات، ويتحول نضال الواجب إلى استهلاك متفاعل واحتفالي للأحاسيس الطيبة "[46] وذلك عن طريق أسلوب الدعابة الذي خلقته وسائل الاتصال المعاصرة وجعلت منه طريقة في التعبير عن الاسترخاء والمتعة في العمليات الوظيفية للاتصال[47]. وعلى هذا ففي وسائل الإعلام المُعاصرة، لم نعد نشهد فيها أخلاق الالتزام، بل سكنت فيه أخلاق شعورية أين أصبح فيه القلب ينتصر على الواجب، ويرجع هذا التحول لرغبة الميديا المُعاصرة إيقاظ التعاطف الوجداني للجمهور والبؤساء[48].

ولقد سعى الإعلام الجماهير المعاصر لإعلاء قيم الحياة والرفاه والسعادة الفردية وهذا من اجل الترويج لأخلاق حياتية جديدة تسودها المتعة والاستهلاك [49].

ولعل الإحسان الإعلامي عبر الأعمال الخيرية بات يؤكد لنا مدى تمسكنا بثقافة المتعة بحيث أنه حتى في المحن لم نعد قادرين على إفساد سعادتنا الاستهلاكية نتيجة اعتبارها فرصة للتسلية والترفيه، خاصة بمشاركتنا لنجوم والفنانين، حيث في ذالك الظرف نصبح نشعر شيئا فشيئا بأننا ملزمون بأداء واجبات إلزامية تجاه الآخر [50]. وأكيد أن هذا ما أوصفه لنا ليبوفيتسكي بتسطيح الواجب إعلاميا من حيث كونه يتعزز من خلال فكرة الإحسان وأخلاق الشعور، إضافة إلى فكرة التطوع والمتطوعين وذلك بعد أن "تراجعت فكرة التضامن كمجال خاص بالدولة فحسب"[51]، التطوع الآن أصبح جماهيريا إذ بات يُراعي مفهوم الغيرية ولكن من دون أن يكون تضحويا، والتطوع أصبح الآن يمكن تسطيحه وإن كان ظاهريا يتنافى مع الاستهلاك المفرط. وما يجعلنا نستفيق لتحليل مفهومي الإحسان والتطوع هو تساؤلنا عما يبطنه مفهوم الإحسان وأخلاق الشعور الإعلامية، ومسألة مفهوم التطوع عن إمكانية تجاوزه للتراتبية التي تبقى قائمة بين (المتطوع والمتَطَوَعُ له)، وبين (المُحسِنِ والمحسَنُ إليه)، وعن مدى استمرارية مشاعر الحسرة والألم مع المشاهد التراجيدية التي نشاهدها عبر شاشات التلفزيون، أم أنها تنتهي بنهاية العرض، أو بتغيير القناة؟ وكذا عن طبيعة السعادة التي يشعر بها من يحسن إليه تحت أضواء الكاميرا هل هي سعادة حقة؟ أم أنها إهانة مغلفة في قالب الإحسان والتطوع؟ وهل المتطوع يشعر بسعادة العطاء تحت شاشات الكاميرا أم أنها بروتوكولات تزيد من شهرته وسطوعه ولا تنفك عن قيم السوق الاستهلاكية؟

خاتمة:

على ضوء ما سبق تقديمه فقد توصلنا لجملة من النتائج والتوصيات.

أما **النتائج** فيمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- الإعلام الفائق قد ولد لنا إنسانا نرجسيا، يؤمن بمبدأ التغير، فهو لا يقبل برتابة اليومي، بل يبحث دائما على التجديد، ولا يؤمن بسعادة مؤجلة، إنه يهتف للمتعة الفورية، وللسعادة المادية الآنية، إنه زمن السعادة النرجسية.
- سعادة الإنسان المُعاصر مرتبطة بمغريات السوق الاستهلاكية، مما جعله ينخرط في العملية الاستهلاكية دون ترشيد، ولذلك نجد أن تقسيم المجتمع بدوره لطبقات قد أصبح خاضعا لمدى انخراطها في هذه العملية، مما رسخ لكوجيتو جديد هو كوجيتو الاستهلاك، الذي أصبح يحدد وجود الفرد بحسب استهلاكه.
- أفول الواجب التقليدي وبزوع ما بعد الواجب، فالواجب لم يعد تضحويا، ذلك أن التضحية اليوم أصبحت مخففة ونسبية، لا تكون على حساب المصلحة الذاتية، ولا تجعل من الغير أولوية، فقد انتهى زمن العيش من أجل الآخر، فالذات وسعادتها مقدمة على الغيرية.
- منافذ السعادة متعددة اليوم، وفي المقابل فمنافذ الخيبة والحزن لا تقل تعدادا، وذلك نظرا لطغيان مساحة الرمزي والافتراضي على الواقعي. فالإعلام المنفصل عن الأخلاق سبب خيبات ونكسات للإنسان المعاصر، وقفت عائقا في سبيل تحقيق سعادته المنشودة.
- طغيان الغواية الشاملة بفضل موجة الاستهلاك والتكنولوجيا، والإعلام الفائق، مما جعل بودريار يؤكد على ضرورة تخليق الإعلام وترشيد الاستهلاك لتجاوز الأزمات المعاصرة، والخروج من دائرة الوهم، والمزيف، والمضلل.

أما **التوصيات** فتتمثل في:

- ضرورة ترشيد الاستهلاك الإعلامي أخلاقيا لتجاوز خيبات ما بعد الحداثة.

- ضرورة التجديد الأخلاقي المتمثل في أخلاق المسؤولية من خلال خلق استهلاك تشاركي عوض الاستهلاك الفائق، هذا التحدي لا يعني نهاية الاستهلاك ولكنه يخلق ما نحتاجه مستهلكا ذكيا فطنا، يشارك في العملية الاستهلاكية التي تكون فيها فرص الربح والتوفير والظفر بما نرغب به مجتمعة، بدل المُستهلك المُنساق الذي يقع في فخ الكآبة، والقلق عندما يعجز عن مجارات تنوع وتجديد السوق الاستهلاكية.

الهوامش:

(1)- ميشيل فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة: الزاوي بغورة، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- ط1،2003م)، ص244.

(*)- مارشال ماكلوهان (1911-1980) أستاذ وكاتب كندي، أحدثت نظرياته في وسائل الاتصال الجماهيري جدلا كبيرا، فهو يرى بأن أجهزة الاتصال الإلكترونية – خاصة التلفاز تسيطر على حياة الشعوب، وتُؤثر على أفكارهم.

(2) - Jean Baudrillard, pour une critique de l'économie politique des signes,(édition Gallimard, 1972), p219.

(3)- جان بودريار، الفكر الجذري (أطروحة موت الواقع)، ترجمة: منير الحجوجي وأحمد قصوار ، دار توبقال للنشر و التوزيع ، المغرب ط1، 2006 م) ص ص (43، -51).

(4)- عبد السلام بنعبد العالي، الفلسفة فنا للعيش، (دار توبقال للنشر والتوزيع، المغرب، ط1،2012 م)، ص25 .

(5)- جان بودريار، المجتمع الاستهلاكي(دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه)، تعريب: خليل احمد خليل، (دار الفكر اللبناني، ط1،1995 م)، ص164.

(6)- جان بودريار، التبادل المستحيل، ترجمة: جلال بدلة، (دار معابر لنشر والتوزيع سوريا ، ط1 ،2013 م)، ص ص17، 18.

(7)- جان بودريار، المجتمع الاستهلاكي(دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه)، مصدر سابق، ص227.

(8)- jean Baudrillard, simulacre et simulation,(édition Galilée ,1981), p121.

(9)- جان بودريار، التبادل المستحيل، مصدر سابق، ص15.

(10)- فر يال جبوري غزول، الهيرمينوطيقا والتأويل، مجلة البلاغة المقارنة (مجلة غير دورية، العدد 8، 1988 م)، ص ص(137، 153).

(11) -Jean Baudrillard, le système des objets, (édition Gallimard 1986),p p (29,35,09).

(12) -Jean Baudrillard, l'échange symbolique et la mort,(édition Gallimard, 1976) ,p24.

(*) جون فرانسوا دورتيي (J-F- Dortier)عالم اجتماع معاصر، من مواليد 1956.

(13)- جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا: تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، (منشورات دار الاختلاف الجزائر، ط1، 2009 م)، ص182.

(14)-إريك دورسون، ما بعد الحداثة وعلم نفس الإنسان- كتاب نصوص مختارة في ما بعد الحداثة- ترجمة: حارث محمد حسين وباسم خريسان، (ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017 م)، ص68.

(15)- Jean Baudrillard, mots de passe, (édition Fayard, paris 2000), p p (64-65).

(16)- Jean Baudrillard, les stratégies Fatales, (édition Fasquelle, 1983), p p (244,268).

(17)- جان بودريار، التبادل المستحيل، مصدر سابق، ص ص(123-124).

(18)- Jean Baudrillard, le miroir de la production, (l'illusion critique du matérialisme historique),(édition Casterman , 1973) ,p20.

(19)- إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة: محمد سيد رصاص، (دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق-سورية، ط1،1998 م)، ص69.

(20)- جاك أتالي، كارل ماركس فكر العالم، ترجمة: محمد صبح، (دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، 2008 م)، ص129.

(21)- إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، مرجع سابق، ص68.

(22)-Karl Marx, œuvres choisies,(Gallimard, paris1963),p p(89-41) .

(23)- كارل ماركس، العمل المأجور، (المطبعة التعاونية السويسرية، 1884 م)، ص42.

(24)- Jean Baudrillard, l'échange symbolique, op-cite, p09.

(25)- جان بودريار، التبادل المستحيل، مصدر سابق، ص ص(30، 60، 62).

(*) ثورستاين باند فيلبن (Velben Thorstein Bunde) (1857-1929) عالم اجتماع، واقتصاد أمريكي، اشتهر بنزعته النقدية للنظام الرأسمالي.

(26)- Jean Baudrillard, pour une critique de l'économie politique du signe, op-cite, pp (10,11,09)

(27)- جان بودريار، التبادل المستحيل، مصدر سابق، ص ص(101، 102، 103).

(28)- فريدريك نيتشه، إنسان مفرط في إنسانيته ، ترجمة: محمد الناجي، (دار إفريقيا الشرق المغرب ،2002 م)، ص ص(116-117).

(29)- كريس هوركس، روزان جيفتك، أقدم لك بودريار، ترجمة: حمدي الجابري ، (المجلس الأعلى لثقافة القاهرة ، ط1، 2005 م) ص24.

(30)-Paul Valery, Regards sur le monde Actuel et autres essais,(édition Gallimard,1945), p195.

(31)- اريش فروم، ماوراء الأوهام، ترجمة صالح حاتم، ط2، (دار الحوار للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1994 م)، ص53.

(*)- فريديريتش جيمسن ولد (1934-) ناقد أدبي أمريكي معاصر ومنظر سياسي ماركسي، يُعتبر من أفضل المعروفين في مجال تحليل الثقافة المعاصرة.

(32)- كامل شياع، في الثقافة والاستهلاك، (سلسلة كتاب قضايا فكرية، القاهرة، 1999م)، ص317.

(33)- جان بودريار، الفكر الجذري(أطروحة موت الواقع)، مصدر سابق، ص42.

(34)- بيير بورديو، العنف الرمزي، (بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، ترجمة: نظير جاهل، (المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط1،1994 م)، ص11.

(35)- نيكولاس رزبرج، توجهات ما بعد الحداثة، ترجمة: ناجي رشوان (المشروع القومي للترجمة القاهرة، القاهرة، 1993 م)، ص45.

(36)- جان بودريار، الفكر الجذري (أطروحة موت الواقع)، مصدر سابق، ص29.

(37)- المصدر نفسه، ص 59.

(38)- جي ديبور، مجتمع الاستعراض، ترجمة: أحمد حسان، (دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000 م)، ص19.

(39)- Jean Baudrillard, D'un Fragment l'autre- entrtients avec François Lyvonnet, (édition Albin Michel, S .A 2001), p43.

(40)- نعوم تشومسكي، الدول المارقة- استخدام القوة في الشؤون العالمية-، تعريب: أسامة اسبر، (مكتبة العبيكان، ط1، 2004 م)، ص ص(444، 441).

(41)- عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، (مكتبة الشروق الدولية ،القاهرة، ط1، 2006 م)، ص 65.

(42)-jean Baudrillard, le système des objets, op-cite, p09.

(43)- Herbert Marcuse, Eros et Civilisation contribution a Freud, (édition Minuit, 1963),p195.

(44) -Michel Bellefleur, le loisir contemporaine- essai de la philosophie sociale, (presses universitaire de Québec, 2012), p12.

(45)- جان بودريار، التبادل المستحيل، مصدر سابق، ص51.

(46)- جيل ليبوفتسكي، أفول الواجب، الأخلاق الغير المؤلمة للأزمنة الديمقراطية الجديدة ، ترجمة: بشير عصام المراكشي، (مركز نماء للدراسات والبحوث، بيروت –لبنان، ط1، 2018م) ص 54.

(47)- جيل ليبوفتسكي، عصر الفراغ: الفر دانية المُعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، ترجمة: حافظ ادوخراز، (مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت- لبنان، ط1،2018 م)،ص165.

(48)- جيل ليبوفتسكي، أفول الواجب، الأخلاق الغير المؤلمة للأزمنة الديمقراطية الجديدة ، مرجع سابق، ص ص (151، 152).

(49)- Gilles Lipovetsky,l'empire de l'éphémère,(éditions Gallimard, 1987), p 262.

(50)- جيل ليبوفتسكي، أفول الواجب، الأخلاق الغير المؤلمة للأزمنة الديمقراطية الجديدة ، مرجع سابق ، ص ص (147، 152).

(51)- Gilles Lipovetesky : le crépuscule du devoir, op-cite, p181 .